بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 28 مارس 2017

الكتابة الفلسفية بضمير المتكلم

عزالدين الخطابي
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

ملخص:

توجد علاقة واضحة بين السيرة الذاتية والعمل الفلسفي في المسار الفكري لنيتشه، وقد تجلّى هذا الأمر في كتاب «هذا هو الإنسان»؛ الذي يعتبر تشخيصًا للفلسفة، إلى جانب كونه سيرة ذاتية.

يشكل هذا الكتاب، نموذجًا للوضع الإشكالي، الذي تمتزج فيه شخصية الفيلسوف بأعماله، وقد صنف هذا العمل، الذي صدر في دجنبر سنة 1888م، ضمن الكتابات العنيفة، والمتوترة، والعدوانية، التي سيختم بها نيتشه الصورة التي رسمها عن نفسه؛ فمؤلف «هذا هو الإنسان» يرسم مسار نيتشه، بوصفه فيلسوفًا، وكاتبًا، وإنسانًا على الخصوص.

لا يقدم نيتشه، هنا، نموذجًا لشخصية متكاملة؛ بل يتحدث عن نفسه، وعن أعماله، بهدف إبراز الحركة المجازية لتأكيد الحياة، كصورة للوحدة داخل التعدد، لذلك؛ عرض حياته كاستعارة، من أجل بناء وحدة متكاملة، انطلاقًا من الأحداث الرئيسية التي عايشها؛ فقد تحدث عن الوحدة داخل تعددية للمشاعر، وعن حركتها المجازية كعلاقة بين «إرادات» القوة التي يقصي بعضها بعضًا، والتي تتعايش وتتصارع، مثل الشخصيات المتعارضة أو المتحالفة، داخل حكاية، أو دراما، أو مأساة.

تقديم:

توجد علاقة واضحة بين السيرة الذاتية والعمل الفلسفي في المسار الفكري لنيتشه، وقد تجلى هذا الأمر في كتاب «هذا هو الإنسان»، الذي يقول عنه جان لوفران ما يلي: «حقق المؤلف بهذا العنوان المستفز والساخر، مزجًا مدهشًا بين الفلسفة والسيرة الذاتية؛ لأن عناوين مثل: لماذا أنا حكيم؟ ولماذا أؤلف كتبًا جيدة؟ ليست مجرد سيرة ذاتية؛ بل هي الفلسفة ذاتها؛ إنها الفلسفة المعيشة»[1].

سيستشهد لوفران، أيضًا، بمقولة لنيتشه، جاءت في مقدمة كتابه المذكور، وهي: «تتمثل الفلسفة، كما **اكتسبتها، وفهمتها، وعشتها**، في اختيار العيش فوق القمم المثلجة، بحثًا عن كل ما هو غريب، ويستحق المساءلة، وعن كل ما تمّ إنكاره، إلى الآن، من طرف الأخلاق»[2]؛ فالفلسفة المعيشة التي يتم الإحساس بها قبل التفكير فيها أو كتابتها، لا تسمح بفصل الإنسان عن إنتاجه الفكري، وفي هذا الإطار، كتب نيتشه إلى ناشره رسالة، بتاريخ 7 غشت 1886م، جاء فيها الآتي: «تشهد كتاباتي على تطور دائم، لا يختزل في مصيري، ولا في تجربتي الشخصية؛ لأنني الأول بكل بساطة، وسيفهم الجيل الصاعد ما عشته من تلقاء نفسه، ولكن يجب أن يتوفر على ذوق رفيع، بما فيه الكفاية، للاستمتاع بكتبي»[3].

بالنسبة إلينا، نحن الذين نقرأ كتبه بعد مرور أكثر من قرن على صدورها، ندرك أن المهم فيها؛ هو توفرها على خصوصية ميزتها منذ البداية، بوصفها إعلانًا عن رؤية جديدة وثورية، لا تخضع للنسقية، ولا للتتابع الكرونولوجي، وهو ما سيتأكد بوضوح من خلال مراسلات نيتشه؛ فهذا الأخير، سيبتعد عن شوبنهاور قبل نشر الخاطرة الثالثة «شوبنهاور المربي» (في مؤلف «خواطر في غير زمانها»)، كما أن تحفظات نيتشه على فاغنر، ستظهر قبل نشر الخاطرة الرابعة التقريظية، وعنوانها «فاغنر في بايروت»، (ضمن المؤلف السابق الذكر)، ويؤكد ذلك، حقيقة أساسية، وهي؛ تجاوز نيتشه للمسار الخطي والكرونولوجي للعمل؛ لأن الأمر لا يتعلق بتطور أو تقدم بالمعنى المألوف؛ بل بكلية العمل التي تجسد التداخل بين المعيش الشخصي والمصير، وبين الأنا الشعوري (واللاشعوري) والأنا المتفلسف، فما عاناه نيتشه، يتعين فهمه داخل المواضيع الأساسية المتجلية في مجموع أعماله الفلسفية، وإن بشكل متفرق وشذري.

هناك، إذن، تداخل بين الإنتاج الفلسفي وشخصية الفيلسوف، وهو ما أكده (كارل ياسبرز K. Jaspers)، بقوله: «إن حياة نيتشه كانت، ولأسباب عديدة، إشكالية على الدوام؛ فصداقاته انتهت بتجربة عزلة لم يعان منها أحد مثله، كما أن مرضه، وإن كان قد دمر حياته، إلا أنه ساهم في تبلور مساره، بحيث لا يمكننا تصور

1 Jean Le Franc, Comprendre Nietzsche, Paris, Armand Colin, 2003, pp. 25- 26.

2 Cité par Jean Le Franc, Ibid., p 26.

3 Ibid.

حياة نيتشه وأعماله بدون المرض، وفضلًا عن ذلك، تتضمن حياته كل ما هو مثير وغريب، بدءًا بتعيينه المبكر بالجامعة، ومرورًا بمشاكل نشر أعماله، وحياة التجوال التي قضاها، وانتهاءً بالعزلة التامة التي قادته إلى المآل المحتوم»[4].

يشكل كتاب «هذا هو الإنسان»، نموذجًا لهذا الوضع الإشكالي، الذي تمتزج فيه شخصية الفيلسوف بأعماله، وقد صنف هذا الكتاب، الذي صدر في شهر دجنبر سنة 1888م، إلى جانب حالة فاغنر، وأفول الأصنام، والمسيح الدجال، ضمن الكتابات العنيفة، والمتوترة، والعدوانية، التي سيختم بها نيتشه الصورة التي رسمها عن نفسه؛ فمؤلَّف «هذا هو الإنسان»، يشكل مرحلة استيعاب نيتشه لمساره كفيلسوف، وكاتب، وإنسان على الخصوص.

- مسار نيتشه من خلال كتاب «هذا هو الإنسان»:

يقول نيتشه في رسالة موجهة إلى براندس Brandes، بتاريخ 20 نوفمبر 1888: «سردت قصة حياتي بنفسي، بنوع من السخرية، التي ستأخذ شكل حدث في التاريخ الكوني؛ فعنوان الكتاب هو: «هذا هو الإنسان»، الموجه ضد «المصلوب crucifié»، وقد اختتم بدوي الرعد، وبانتقادات عنيفة موجهة ضد كل ما هو مسيحي أو ملوث بما هو مسيحي، إلى الحد الذي سيؤدي بقارئه إلى الصمم، أو العمى التام، وفي آخر المطاف؛ فأنا أول سيكولوجي مهتم بالمسيحية، وبوصفي جنديًا محنكًا من الرماة؛ فإنني أستطيع أن أهيئ ترسانة من العيار الثقيل، لم يسبق لأي خصم للمسيحية أن سمع بها، وهذه مقدمة لقلب كل القيم، وهو الكتاب الذي انتهيت من تأليفه، يقصد «المسيح الدجال»، وأقسم لك: إننا سنجعل العالم كله عرضة للتشنجات، في غضون سنتين؛ لأنني أنا القدر»[5]. ويقول في رسالة موجهة إلى دوسين Deussen، في نوفمبر 1888: «إن كتاب «هذا هو الإنسان»، أو «كيف صرنا ما نحن عليه»، يعالج شخصي فقط؛ فأنا أبدو فيه حاملًا لرسالة ستغير العالم، وقد سلطت فيه الضوء على كتاب زرادشت، بوصفه أول كتاب أنجز خلال آلاف السنين الأخيرة، وإنجيل المستقبل، وأقوى انبثاق للعبقرية الإنسانية؛ حيث يتناول المصير الإنساني برمته».

وفي رسالة إلى هيلين زيمرن H. Zimern، بتاريخ 8 دجنبر 1888م، قال: «إن الأسلوب الذي كتب به هذا العمل، لا مثيل له من بين كل الروائع التي كتبت». وسيؤكد ذلك في رسالة إلى غاست Gast، بتاريخ 9 دجنبر 1888م، جاء فيها: «إن هذا الكتاب، يتعالى على مفهوم الأدب، ولا شيء يمكن أن يضاهيه في

4 Karl Jaspers, Nietzsche, Introduction à sa philosophie, traduit de l'allemand par Henri Niel, Lettre - préface Jean Wahl, Paris, Gallimard, 1978, p 119.

5 نشير إلى أن كل الرسائل التي سيتم الاستشهاد بها، مستقاة من مؤلف:

Friedrich Nietzsche, Ecce homo, suivi de Nietzsche contre Wagner, Traduits et annotés par Eric Blondel, Paris, Flammarion, 1999, p 109 et suiv.

الطبيعة». وسيضيف قائلًا: «بخصوص الخاطرتين، الثالثة والرابعة، في مؤلف «خواطر في غير زمنها»، ستقرؤون اعترافًا بشأنهما في «هذا هو الإنسان»، يثير الرعب، مثلما حصل لي عندما قرأته؛ فهما لا تتحدثان إلا عني، وليس هناك أي حضور لفاغنر ولا لشوبنهاور، أقصد حضورهما بالمعنى السيكولوجي، ولم يتسن لي فهم هاتين الخاطرتين، إلا منذ أسبوعين».

بذلك، يمكن القول: «إن نيتشه جسد في هذا الكتاب حضور (أنا الفيلسوف)، جاعلًا الفلسفة تتحدث بضمير المتكلم. وكما أقر إريك بلونديل E. Blondel، في مقدمة ترجمته لهذا الكتاب: «إن نيتشه لا يمكن أن يصنف في خانة فلاسفة، مثل؛ أرسطو، وديكارت، وإسبينوزا، أو كانط؛ لأن الواقع الذي تحدث عنه، لا يعكس الحقيقة ذات الماهية العقلانية التي يكتشفها الفيلسوف عبر التمثل الواعي؛ بل على العكس؛ لأن جوهر الوجود، بالنسبة إليه، هو إرادة، ورغبة، وحالة وجدانية، ما قبل واعية ولا عقلانية، إن هذا الجوهر، باختصار؛ هو إرادة الحياة، وهكذا؛ فإن كتاب «هذا هو الإنسان» قد كتب تاريخًا استعاريًا على شكل حكاية محبوكة الخيوط»[6].

أليس نيتشه هو القائل، في رسالة موجهة إلى صديقه كارل فوش K. Fuchs، بتاريخ 27 دجنبر 1888: «إذا ما نظرنا إلى المسألة بروية يا صديقي العزيز؛ فإن الحديث أو الكتابة عني، لم تعد له أهمية كبرى؛ فمسألة معرفة من أكون، قد حسمت إلى الأبد في كتابي «هذا هو الإنسان» الذي هو قيد الطبع، وينبغي، من الآن فصاعدًا، عدم الاهتمام بشخصي، والاهتمام، مقابل ذلك، بالأشياء التي تبرر وجودي»؟

بهذا الصدد، اعتبر بلونديل في مقدمته المذكورة، أن بعض الموضوعات النيتشوية الكبرى، قد تمفصلت حول الدور الرئيس للأنا، و«للنزعة الأنانية»، وهنا، برز نقد نيتشه للأخلاق الغربية (الأفلاطونية والمسيحية)، التي قامت على الرأفة، والتعاطف مع الغير ومع الضعفاء، بغرض التقليل من شأن إرادة الأنا.

لكن هذا الأنا مجازي، وهو الأمر الذي يفسر كيف عجت مؤلفات نيتشه، وخصوصًا كتاب «هذا هو الإنسان»، بالاستعارات؛ فنيتشه لا يقدم نموذجًا لشخصية متكاملة؛ بل يتحدث عن نفسه، وعن أعماله، بهدف إبراز الحركة المجازية لتأكيد الحياة، كصورة للوحدة داخل التعدد، لذلك؛ عرض حياته كاستعارة، من أجل استيعاب وبناء وحدة أو تركيبة، انطلاقًا من الأحداث الرئيسة التي عايشها؛ فقد تحدث عن الوحدة التعددية للمشاعر، وعن حركتها المجازية كعلاقة بين «إرادات» القوة، التي يقصي بعضها بعضًا، والتي تتعايش وتتصارع مثل الشخصيات المتعددة الأوجه، المتعارضة أو المتحالفة، داخل حكاية، أو دراما، أو مأساة.

6 Ibid., p 150.

نقترح الآن؛ تتبع أفكار نيتشه من خلال هذا الكتاب المتميز، الذي يأسر من يقرأه، من بدايته إلى نهايته[7]؛ ففي المدخل، أكد على ضرورة الحديث عن الذات، والحقيقة، والكذب، ومعنى الفلسفة، متوقفًا عند كتاب زرادشت؛ الذي نعته بكتاب القمم العالية، وقد اعتبر أن الحديث عن الذات، هو؛ تحدٍّ للإنسانية، يسعى من خلاله إلى إبراز عظمة مهمته أمام وضاعة معاصريه.

وضع نيتشه نفسه على النقيض من الأشخاص المحترمين والورعين؛ لأنه (ديونيزوسي)، ويفضل أن يكون خليعًا / satyre، على أن يكون قديسًا؛ فهو يعارض إقامة أوثان جديدة، وتكريس عالم تقلب فيه الحقائق والمعاني، وما يسمى بعالم الحقيقة والمظاهر، هو؛ عالم الكذب الذي تشبعت به الإنسانية، إلى درجة تقديسها لقيم مخالفة لتلك التي كانت ستضمن رفاهيتها.

اعتبر، أيضًا، أن نفس souffle كتاباته، انبثق من القمم العالية؛ حيث يكثر الجليد، وتوجد الفلسفة؛ إذ إن التفلسف، كما فهمه ومارسه، يعني؛ العيش إراديًا فوق الجليد والقمم، بحثًا عن كل ما هو مثير ومدهش في الحياة؛ أي كل ما تم إقصاؤه من طرف الأخلاق، ومعيار التقييم عنده، كالآتي: الخطأ جبن، والمعرفة شجاعة؛ لهذا سعت فلسفته إلى مناهضة كل أشكال المنع. ويحتل مؤلف «هكذا تكلم زرادشت»، وضعًا خاصًا ضمن هذه الفلسفة؛ لأنه عميق ويزخر بكنوز الحقيقة، وهو ليس نداء نبي؛ بل صوت شاد، ولا يمكن لأي كان أن يفهم زرادشت؛ لأنه يعلن عن فكر مختلف، ويعمل على قلب قيم الحب، والكراهية، والاحترام، ولا يحتاج إلى مريدين.

في المقاطع التي تحدث فيها نيتشه عن نفسه ككحيم[8]، تطرق لقضايا؛ الصحة، والمرض، واسم العلم، والعلاقة بالأب، والاستراتيجية الحربية؛ فإذا كان أبوه قد توفي في سن السادسة والثلاثين؛ فقد أحس بدوره بالسقم والوهن الشديدين في هذه السن؛ ضعف البصر، والتخلي عن التدريس بالجامعة، وفقر الدم، والآلام الهضمية المبرحة، ومع ذلك، تفتح الذهن في ظل هذا الوضع الواهن، وتمكن من إنجاز مؤلف فجر.

إن الآلام الجسدية، يقول نيتشه؛ هي التي سمحت لي بأن أكون ملاحظًا يقظًا، ومفكرًا متميزًا، وعالمًا بالشؤون النفسية؛ فمن منظور المرض، تم اعتبار المفاهيم والقيم السليمة، وأنا مختص في فن قلب المنظورات، وربما كنت الوحيد القادر على تحويل القيم بشكل عام.

7 اعتمدنا على كتاب «هذا هو الإنسان» في طبعته الآتية:

Friedrich Nietzsche, Ecce homo, ou comment on devient ce qu'on est, traduction Henri Albert, révisée par Jean Lacoste, Introduction Peter Pütz, in Œuvres, Paris, Robert Laffont, 2005, p p 1105- 1198.

8 Ibid., pp 1117- 1128.

لذلك، اقترنت فلسفته بالرغبة في الصحة والحياة؛ لأن الحفاظ على الصحة، هو ما يؤكد الحياة، ويزكي غريزة الحفاظ عليها.

هناك تأثير للأب، يتمثل في رفض السلوك العدواني والانتقامي؛ فهو يقابل إساءة الآخر بسلوك متفهم وذكي، ويرسل علبة من المربى إلى خصمه، لتخليصه من توتره.

هنا، سيبرز نيتشه؛ العالم النفساني الفاحص للسلوكات الإنسانية[9]؛ فبالنسبة إليه، لا شيء ينهك المرء أكثر من الحقد، والرغبة في الانتقام، والحساسية المرضية، فهذه المشاعر تؤدي جميعها إلى عسر الهضم، وآلام المعدة، وقد فهم بوذا، هذا «الفيزيولوجي العظيم»، كيف أن الحقد هو المرض ذاته، فحرّمه، ولذلك؛ فإن تعاليمه الصحية، دعت إلى تحرير النفس من الحقد، كخطوة أولى نحو الصحة والعافية.

لكن الأمر يختلف عند إعلان الحرب، فمزاج نيتشه حربي؛ لأن غرائزه هجومية، ولأن الرغبة في الهجوم تشكل جانب القوة لدى الإنسان، في حين، أن الرغبة في الانتقام والحقد تشكل جانب الضعف لديه، وتقاس قوة المهاجم بقوة عدوه؛ لأن التقدم يقاس باختيار الخصم العنيد أو المشكلة المعقدة، وأول شرط للمعركة، هو أن تتسم المواجهة بالندية.

يمكن تلخيص الاستراتيجية الحربية لنيتشه في أربع نقاط، وهي:

- أهاجم فقط الخصم المنتصر، أو الذي يتوقع الانتصار.

- أقوم بالهجوم عندما أكون متأكدًا من عدم وجود حلفاء يساندونني؛ أي عندما أكون وحيدًا.

- لا أهاجم الأشخاص؛ بل أستخدمهم كنظارات مكبرة لأبرز من خلالهم الكوارث العمومية.

- أقوم بالهجوم عندما لا يوجد خلاف شخصي، ولا توجد إجراءات خبيثة؛ فالهجوم دليل على الطيبوبة والامتنان.

سيشير نيتشه، في ضوء ذلك، إلى توفره على «هوائيات سيكولوجية»، يتحسس بها أعماق النفس بحثًا عن النقاء والصفاء. لذلك؛ فإن إنسانيته القائمة على هذا الإحساس وهذا الشعور، تدفعه إلى العزلة كي يستنشق الهواء العليل.

9 Ibid., p 1124.

هناك سؤال مستفز آخر طرحه نيتشه، وهو: لماذا أعرف أكثر من الآخرين؟[10]، وكان الجواب، هو: أنه اهتم دومًا بالأسئلة الحقيقية دون غيرها؛ فهو لم يهتم، منذ الصغر، بالقضايا اللاهوتية المتعلقة بالإله، وبخلود النفس، والتكفير عن الخطيئة، والخلاص، ...إلخ؛ لأن هناك سؤالا أهم، وهو: كيف يمكن أن أغذي النفس بالفضيلة المتحررة من الأخلاق المسيحية؟ وفي هذا الإطار، ستشكل استعارة التغذية، وسيلة لنقد الثقافة، وخصوصًا، الثقافة الألمانية؛ فقد اعتبر أن «المطبخ» الألماني، كارثة بالنسبة إلى الأمعاء؛ لأنه يورث التخمة، ولا يؤدي إلى أية نتيجة إيجابية، لذلك؛ دعا إلى اتباع تغذية صحية، وترتبط التغذية بأمكنة الإقامة، وبالمناخ الجيد، وبأوقات الاستراحة؛ فبالنسبة إليه، تعتبر القراءة فترة استراحة من عناء العمل الفكري وصرامته، ولكنه ينبهنا إلى أنه يبعد عنه كل الكتب، عندما ينهمك في الكتابة؛ لأنه لا يتحمل أن يتحدث أو يفكر شخص آخر بجانبه، ولكن، ماذا يقرأ نيتشه؟ يقول: إنه يفضل الكتاب الفرنسيين على الألمان، ويذكر أسماء، مثل: باسكال، أناطول فرانس، غي دوموباسان، مريمي، وخصوصًا، ستاندال، مبررًا اختياره هذا، بكونه يؤمن بقيمة حضارة واحدة، وهي الحضارة الفرنسية.

ستشكل هذه المقارنة بين الثقافتين، الألمانية والفرنسية، مناسبة للحديث مرة أخرى عن فاغنر؛ ففي فترة شبابه، وجد بجانب هذا الأخير، متنفسًا من الضيق وعسر الهضم، اللذين كان يشعر بهما إزاء كل ما هو ألماني؛ لأن فاغنر شكل احتجاجًا على الثقافة الألمانية السائدة، وعرف التألق في فرنسا، بلد الفنون بدون منازع، وفي هذا الإطار، سيذكرنا بما كتبه في مؤلَّفه «ما وراء الخير والشر»؛ من كون الرومانسيين الفرنسيين، مثل: برليوز، ودولاكروا، وبودلير، كانوا قريبين من فاغنر، ومناصرين لفنه، لذلك؛ اعترف أن فاغنر كان أكبر نعمة تلقاها في شبابه المبكر؛ فهما كانا يشتركان معًا في رفضهما لكل ما هو سطحي ومبتذل في ألمانيا، وهنا، سيتحدث نيتشه عن ذوقه الموسيقي؛ ليخبرنا بأنه يريد موسيقى مرحة، وحنونة، وحيوية، مثل امرأة تجمع بين المراوغة والدلال، ومرة أخرى، سيتهجم على الألمان الذين يجهلون ماهية الموسيقى، معتبرًا أن من يصنفون كموسيقيين ألمان مشهورين، ينتمون إلى أعراق أخرى، كما هو الأمر بالنسبة إلى باخ، وشوتز، وهاندل.

يندرج كل ما تم عرضه بخصوص التغذية، والأمكنة، والمناخ، والقراءة، والموسيقى، ضمن ما يدعوه نيتشه بغريزة الدفاع، التي تتلخص في قول (لا)، أقل ما يمكن، كي لا نستنفذ قوتنا الدفاعية في الأمور الصغرى، لذلك؛ علينا التخلص من الشروط، التي تفرض علينا تعليق مبادرتنا، وحريتنا، وتسعى إلى إخضاعنا، وبالتالي؛ نفي إرادتنا.

10 Ibid., p p 1129- 1144.

- الإجابة عن سؤال: كيف نصير ما نحن عليه؟ (وهو، للتذكير، العنوان الفرعي للكتاب).

حان الآن، وقت الإجابة عن سؤال: كيف نصير ما نحن عليه؟ بوصفه مسألة جوهرية ضمن فن الحفاظ على الذات والنزعة الأنانية.

يؤكد نيتشه، بهذا الخصوص؛ أنه قد يقبل بعض الأخلاقيات، مثل: محبة الغير، والإيثار، ولكن شريطة أن تشكل دعامة للأنانية القوية، وسيعدّ أن قلب القيم يتطلب مجهودًا يفوق قدرة شخص واحد، وطاقات متناقضة، ولكنها قادرة على التعايش.

سيضيف بعد ذلك؛ أنه ليس بطلًا بطبعه، كما أن تجربته الحياتية، تجهل تمامًا «الرغبة» في شيء ما، والطموح من أجل تحقيق هدف معين، ويمكن القول: إنه عاش بدون رغبات!، والأمر العجيب، في كل ذلك، هو؛ أنه، كشخص تجاوز الأربع وأربعين سنة، لم يهتم أبدًا بالتكريم، ولا بالنساء، ولا بالمال، ومع ذلك، عرف لحظات المجد، في سنّ مبكرة، حين أصبح أستاذًا جامعيًا في سن الرابعة والعشرين، وفقيهًا في اللغة لسنتين قبل ذلك، بفضل أستاذه ريتشل الذي يذكره بتقدير كبير.

في رده على أولئك، الذين اعتبروا حديثه عن التغذية، والمرض، والمناخ، ...إلخ، غير ذي قيمة، سيقرّ نيتشه، على العكس؛ أن ما ذكره أهم من كل الأشياء، التي اعتبرت جادة إلى الآن؛ فكل ما عالجته الإنسانية، إلى يومنا هذا، هو، في نظره؛ زيف، وكذب، وأوهام، نابعة من غرائز مريضة، وغير مفيدة، وينطبق ذلك على مفاهيم مثل: النفس، والفضيلة، والذنوب، والحياة الأبدية، ...إلخ، فكل قضايا السياسة والمجتمع والتربية، أجهضت منذ البداية؛ **لأنه تم احتقار الأشياء الصغيرة؛ أي المسائل الأساسية في الحياة**.

نصل إلى عنصر مهم ومثير، ضمن هذا المؤلَّف، عرض فيه نيتشه لكل الأعمال التي أصدرها، بطريقته الخاصة المختزلة في السؤال، الذي استهل به هذا القسم من الكتاب، وهو: لماذا أؤلّف كتبًا جيدة؟[11].

كان منطلق الجواب عبارة دالة، جاء فيها: (أنا شيء وأعمالي شيء آخر)، تضعنا هذه العبارة أمام إشكالية هامة، وهي؛ علاقة شخصية الفيلسوف بأعماله، وكان موقف نيتشه واضحًا بهذا الصدد؛ حيث دعا القارئ إلى التمييز بين نيتشه المؤلف، ونيتشه الإنسان، وتجلى ذلك، مثلًا، في رسالته الموجهة إلى ناشره، بتاريخ 7 غشت 1886م، والتي جاء فيها ما يلي: «تشهد كتاباتي على تطور دائم، لا يختزل في مصيري، ولا في تجربتي الشخصية؛ لأنني الأول بكل بساطة، وسيفهم الجيل الصاعد، من تلقاء نفسه، كل ما عايشته، ولكن عليه التوفر على ذوق رفيع للاستمتاع بكتبي»[12].

11 Ibid., p p 1145- 1153.

12 بخصوص رسائل نيتشه، انظر: الهامش 5

يثير نيتشه، هنا، مسألة مهمة أخرى، وهي: تلقي كتبه من طرف القارئ؛ فمن الواضح أن علاقته بقرائه، لم تكن ممتازة، ولا حتى طيبة؛ لأن أغلبهم، في اعتقاده، غير قادرين على الفهم. غير أنه سيستدرك قائلًا: إن حكمه قد يكون متسرعًا؛ لأن مجموعة من أعماله، لن تنشر إلا بعد وفاته، فكون أعماله لم تقرأ (أو لن تقرأ)، راجع بالأساس إلى انفتاحها على قضايا وتجارب جديدة غير مألوفة، مما يؤدي، لا محالة، إلى رفضها؛ فالمشكلة، حسب نيتشه، هي: أن الناس كونوا عنه صورة خاصة، بوصفه مثاليًا ومناهضًا للقيم، وهذا غير صحيح. وبذلك، سقطوا في سوء الفهم، وذكر كمثال على ذلك: سوء الفهم التام «للإنسان الأعلى»؛ فقد قصد من وراء ذلك، نموذجًا للكمال المطلق، كبديل للإنسان الحديث، وللناس المتسامحين، مسيحيين كانوا أو عدميين، وهذا الفهم يخالف تمامًا شخصية زرادشت، الذي اعتقد، عن خطأ، أنه يمثل عرقًا ساميًا، وأنه نصف قديس، ونصف عبقري، وهو ما أدى ببعض أشباه العلماء ânes savants، إلى نعته بالدارويني، علمًا أنه أبعد ما يكون عن الداروينية.

لذلك؛ هو لا يهتم بالانتقادات الموجهة إلى كتبه، خصوصًا في الصحافة، معتبرًا، بالمناسبة، أن «الجريدة الوطنية»، قد ارتكبت جريمة في حق مؤلّفه «ما وراء الخير والشر»، عندما رأت فيه تعبيرًا عن أخلاقيات القروي البروسي النبيل، وهو أمر عار من الصحة.

فما يميزه كمؤلف، هو: أن كتبه «تفسد الأذواق»، بمعنى؛ أنها تدفع القارئ إلى إعادة النظر في الأفكار التي استقاها من الكتب الفلسفية الرائجة؛ بل والنفور منها، وهناك شهادات على التأثير الجلي لكتاباته، التي تناهض كل ما هو بئيس، وجبان، وملوث، ومنافق، ولهذا؛ فهو ينتقد من يمتدح أعماله، نفاقًا ومجاملة، ويعتبر أن القارئ النموذجي؛ هو من يتحلى بالجرأة، والفضول، والمكر، والذكاء، وروح المغامرة والاكتشاف، وهذا الصنف من القراء؛ هو الذي تكلم عنه زرادشت.

سيتحدث نيتشه، بعد ذلك، عن الأسلوب أو الأساليب التي اعتمدها لإنجاز مؤلفاته؛ فالهدف من أي أسلوب معتمد، هو تبليغ حالة سيكولوجية، أو توتر عاطفي، بواسطة العلامات، ولأن حالاته النفسية غير مستقرة؛ فإنه يستعمل أساليب متنوعة «لا نظير لها»، وتبدو قيمة وفعالية الأسلوب الجيد، عندما ينجح المؤلف في تبليغ الحالة النفسية، ولا يخطئ في استعمال العلامات، واختيار إيقاعاتها الملائمة، ومع ذلك، سيعترف أن كتاب زرادشت لم يجد بعد القارئ الذي يستحقه؛ لأنه لا يوجد من يستطيع فهم المجهود الفني المبذول في هذا العمل؛ فقد اكتشف فيه كنوز اللغة (الألمانية)، خصوصًا، في الكتاب الثالث، المعنون بـ «الأختام السبعة»، الذي تم فيه تجاوز الأسلوب الشعري نفسه.

لكل هذا؛ يرى نيتشه أن من يتكلم في أعماله، هو **عالم النفس** الذي يناهض القيم السائدة حول السعادة، والفضيلة، والخير، وحول التقابلات القائمة في مجال الأخلاق، مثل: الحب/الأنانية، اللذة/الألم، ...إلخ.

سيسمح الحديث عن القيم بإثارة موضوع المرأة، التي سيدّعي نيتشه بأنه يعرفها جيدًا، باعتباره «أول سيكولوجي للنوع النسوي الخالد»؛ فهو يعتقد: «أن النساء شريرات، وهن مثل الحيوانات الكاسرة، الخطيرة واللطيفة في نفس الوقت؛ فبإمكان المرأة الساعية إلى الانتقام، تغيير مصير شخص بأكمله، وهي أشرس من الرجل وأذكى منه». وما يميز موقف نيتشه من المرأة، هو: رفضه للمساواة بين الجنسين؛ فنضالها من أجل حقوق مساوية للرجل، هو عبارة عن مرض، وعلى العكس من ذلك؛ فإن المرأة الحقيقية ترفض أي نوع من الحقوق؛ لأن حالة الطبيعة والحرب الدائمة بين الجنسين، يمنحانها التفوق على الرجل.

هكذا؛ فإن نيتشه الذي استعمل معول النقد لهدم كل القيم العتيقة، التي اعتبرها مناهضة للحياة، لم يجرؤ على مواجهة القيم الذكورية؛ بل وقف بالمرصاد أمام أحد أبرز تجليات الأزمنة الحديثة، ونقصد بذلك، مسألة تحرر المرأة، وهو ما يذكرنا بما قاله في مؤلفات سابقة، وخصوصًا مؤلف «ما وراء الخير والشر»، من كون الإقرار بالمساواة بين المرأة والرجل، وإخضاعهما لنفس التربية، ولنفس الواجبات، ومنحهما نفس الامتيازات، دلالة على بلادة فكرية؛ فالنساء: «مثل الطيور التي يجب وضعها داخل الأقفاص، حتى لا تطير بعيدًا (..)، وعلى الرجل العاقل أن يعامل المرأة، مثل معاملة الشرقي لها؛ إذ يجب عليه أن يعتبرها ملكًا خاصًا له، يتعين سجنها وإخضاعها لأوامره؛ وكذلك، كان يفعل الإغريق (..). وعلينا أن نتأمل إلى أي مدى كان هذا الموقف ضروريًا، ومنطقيًا، ومأمولًا من الناحية الإنسانية»[13].

وإذا كان احترام المرأة من الأمور التي استلزمها تطور المجتمع الغربي، وانفتاحه ثقافيًا، واجتماعيًا، وفكريًا؛ أي انغماسه في الحداثة بمختلف تجلياتها؛ فإن نيتشه، سيعتبر ذلك بمثابة خدش للحياة، وتضحية بغرائز الأنوثة؛ فتأثير تطور المجتمع على المرأة، يتناسب عكسيًا مع تحررها؛ لأن الدعوة إلى تخلي المرأة عن غرائزها، تعني، بكل بساطة؛ الدعوة إلى التخلي عن كونها امرأة.

هكذا؛ فإن تحرر المرأة، بالنسبة إليه، هو: تعبير عن حقد دفين لدى المرأة الفاشلة؛ أي العقيمة، تجاه المرأة الطبيعية، وسيكون الصراع ضد الرجل مبررًا لهذا الحقد؛ فالمرأة الفاشلة التي تنعت نفسها «بالمرأة في ذاتها»، تحط من قيمة النساء، وهي تريد تحقيق أهدافها عبر متابعة الدراسة بالثانوي، وارتداء السروال، والمطالبة بالحقوق السياسية، وبالحق في الاقتراع. وبالتالي، تعتبر النساء المتحررات فوضويات، وتدل مبادرتهن على الفشل في الحياة، وعلى الرغبة في الانتقام.

13 F. Nietzsche, Par delà bien et mal, Paris, Gallimard, 1971, pp 154- 155.

ومن الواضح؛ أن مثل هذه الأحكام، تندرج ضمن تصور يرتكز على الإشادة بالهيمنة الذكورية، وعلى تهميش المرأة وتقزيمها، على مستوى الخطاب والممارسة، وهو موقف مناهض للمرأة، على الرغم من وجود محاولات لتبريره، لدى بعض المفكرين المعاصرين، مثل: جاك دريدا؛ الذي اعتبر بأن الأمر يتعلق، في العمق، بنقد النزعة النسائية، ونقد الرجل الذي يؤمن بحقيقة المرأة، وبالمرأة الحقيقية[14].

وبالفعل، إن الرجال، بدورهم، لم يسلموا من سخرية نيتشه اللاذعة، وخصوصًا، تلك الفئة التي فقدت «رجولتها» بمساندتها للدعوات النسائية من أجل تحرير المرأة، وتشجيعها على المساهمة في كل أنشطة المجتمع؛ الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية، وفي ذلك تجريد للمرأة من خصائصها الطبيعية، وإضفاء رؤية مثالية ونموذجية، تتجسد في المرأة العانس غير المؤهلة لإنجاب الأطفال، ولا حتى للممارسة الجنسية، ولذلك؛ سيقدم نيتشه «قانونه الأخلاقي»، المناهض لهذه المثالية، ولكل نزعة تنادي بالعفة لخدمة أعراض مناهضة للطبيعة؛ فالعفة، في نظره، هي: انتهاك لقوانين الطبيعة، كما أن احتقار الحياة الجنسية، هو تلويث لها بفكرة التلوث، وهو بمثابة جريمة ضد الوجود الإنساني، وخطيئة كبرى ضد «روح قدس الحياة».

ستسمح هذه الخواطر لنيتشه، بنعت نفسه «عبقري العواطف»، المؤثر في محيطه؛ حيث يفحم خصومه، ويصقل النفوس، ويمنحها رغبات جديدة، ويكشف الكنوز المخفية؛ فهو يحمل آمالًا، وإرادات، وتيارات جديدة صادرة، عبر عنها في مختلف مؤلفاته، لهذا؛ سيعتبر من اللازم عرض مضامينها لتأكيد هذه الحقيقة، وهو عرض مثير ومتميز، كما سنرى، لأنه سيمكن نيتشه من الحديث عن أعماله الفلسفية جميعها وتقييمها؛ وهو أسلوب فريد من نوعه، يجعل الفلسفة تخاطبنا بضمير المتكلم.

- ميلاد المأساة:

كان من الممكن أن يعنون هذا المؤلف بـ «تجديد المأساة عن طريق الروح الموسيقية»؛ لأنه تضمن رؤية جديدة للفن وللأهداف المتوخاة منه، ولربما، كان العنوان الفرعي، وهو: «الهيلنيستية والنزعة التشاؤمية» أكثر وضوحًا؛ لأن الكتاب عالج، لأول مرة، الطريقة التي واجه بها الإغريق هذه النزعة، وكيف انتصروا عليها.

وبالفعل، **إن المأساة؛ هي الدليل على أن الإغريق لم يكونوا متشائمين**، والملاحظ أن هذا العمل لم يهتم بالمسائل السياسية، وتضمن بعض النفحات الهيجيلية والشوبنهاورية، وقد عرضت فيه فكرة محورية على المستوى الميتافيزيقي، وهي؛ فكرة التناقض بين ما هو أبولوني (عقلي)، وما هو ديونيزوسي (حدسي فني)، والقضيتان الهامتان والجديدتان، هما:

14 Jacques Derrida, Eperons, Les styles de Nietzsche, Paris, Flammarion, 1978, p 50.

- أولًا: تأويل نيتشه للظاهرة الديونيزوسية لدى الإغريق، عبر تفسير سيكولوجيتها، بوصفها أحد جذور الفن الإغريقي.

- ثانيًا: تأويله للسقراطية؛ فسقراط، في نظره، هو تجسيد للانحطاط الإغريقي؛ لأنه استبدل الغريزة بالعقل. وتم في الكتاب؛ إقصاء المسيحية التي ليست أبولونية ولا ديونيزوسية؛ لأنها بعيدة عن القيم الجمالية السامية، ولأنها تمثل العدمية الجذرية.

لذلك، أقر نيتشه باكتشافه لأمرين مهمين، وهما: الروعة الديونيزوسة، والانحطاط السقراطي من جهة، واعتبار الأخلاق علامة على الانحطاط من جهة أخرى، مما دفعه إلى تجاهل النقاشات البئيسة، التي تتصارع من خلالها النزعتان؛ التشاؤمية والتفاؤلية.

فقد اعتبر أنه أول من أدرك غريزة الانحطاط، المتمثلة في (المسيحية وأفلاطون، وفلسفة شوبنهاور، والفلسفة المثالية)، وهو أول من أكد على صيغة (نعم)، المقترنة بحب الحياة والمعرفة، ضد كل النزعات المثالية، فقول: (نعم)، يمثل الجرأة والقوة، وبالمقابل، يحتاج المنحطون إلى الكذب، بوصفه ضرورة حيوية بالنسبة إليهم، وتقترن المأساة بالديونيزوسية، التي تقبل الحياة بمشاكلها وصعوباتها، وهي، مع ذلك، ترغب فيها وتستمتع بها، عبر التضحية بالنماذج «السامية»؛ وهي سيكولوجية الشاعر المأساوي، وأنا، يقول نيتشه، أول فيلسوف مأساوي؛ أي نقيض الفيلسوف المتشائم.

في هذا الإطار؛ يبرز اسم هيراقليطس؛ الذي تعتبر أفكاره حول التناقض، والصراع، والحرب، والصيرورة، قريبة من أفكار نيتشه، وربما كانت فكرة العود الأبدي، التي نادى بها زرادشت، صادرة عن هذا الفيلسوف الإغريقي.

لهذا كله، يعتبر ميلاد المأساة كتابًا تنبؤيًا؛ فهو بمثابة وعد بالعودة القريبة للروح المأساوية الإغريقة، وتحديدًا، بمستقبل ديونيزوسي للموسيقى، مستقبل يمجد الحياة، وينفي كل أشكال الانحطاط، وهكذا، ستولد المأساة من جديد، كدلالة على عنفوان الحياة؛ حيث تتذكر الإنسانية ما عانته في ماضيها، لكنه تذكر دون ألم.

- خواطر في غير زمنها:

تعتبر هذه الخواطر أسلحة حربية، وتدل على أن نيتشه كان يجد متعة في المبارزة والمواجهة؛ فالخاطرة الأولى: تضمنت نقدًا لاذعًا للثقافة الألمانية السائدة، التي كان يحتقرها بدون تحفظ، وهذه الثقافة، في نظره، لا معنى لها، ولا هدف، ولا جوهر؛ لأنها مجرد تعبير عن «رأي عام»، وسيكون من سوء التقدير، الاعتقاد أن الانتصار العسكري لألمانيا على فرنسا، ينطوي على أفضلية ثقافية. وتكشف الخاطرة الثانية عن الأخطار

التي يتضمنها نظام المعرفة العلمية في ألمانيا، بوصفه لا إنسانيًا، ومناهضًا للحياة، وانتقد فيها نيتشه، أيضًا، نظام تقسيم العمل الذي سلب العامل إنسانيته، معتبرًا أن مفهوم «المعنى التاريخي»، الذي يفتخر به القرن؛ هو دليل على مرض الإنسانية الحقيقي، وعلامة على تفسخها.

أما في الخاطرتين، الثالثة والرابعة؛ فسيقترح نموذجين لتبجيل الذات، يحتقران كل ما له علاقة بالإمبراطورية، والثقافة، والمسيحية، وبيسمارك؛ إنهما شوبنهاور وفاغنر، اللذان سيختزلان في نموذج واحد، وهو نيتشه نفسه.

لقيت الخاطرة الأولى نجاحًا هائلًا؛ حيث وضح نيتشه من خلالها، كيف أن الانتصار العسكري ليس حدثًا في تاريخ الحضارات، وقد تعرض، بسخرية لاذعة، لديفيد اشتروس؛ الذي اعتبره نموذجًا للمثقف التافه، المزهو بنفسه، خصوصًا، بعد صدور مؤلَّفه «الإيمان القديم والجديد».

سيشير نيتشه إلى أنه اتبع حكمة ستاندال، الداعية إلى ولوج العالم عن طريق المبارزة، معتبرًا أنه أحسن اختيار خصمه، الذي اشتهر بكونه أول مفكرٍ حرّ في ألمانيا!.

بخصوص الخاطرتين الأخيرتين؛ فإن الهدف لم يكن تحليل سيكولوجية كل من شوبنهاور وفاغنر؛ بل إثارة مشكلة التربية، وإبراز طريقة جديدة في فهم معنى الانضباط، والدفاع عن الذات، ورسم طريق السمو في الحياة، وهذا سبب اختيار شخصيتين شهيرتين، من أجل قول شيء آخر.

مع مرور الزمن، اكتشف نيتشه أن هذه كتابات لم تكن تتحدث إلا عنه؛ فخاطرة فاغنر في بايروت، هي رؤية لمستقبله، أي نيتشه، ولآماله العظيمة، وهو ما ينطبق على خاطرة شوبنهاور المربي؛ فكل كلمة في هذه الكتابات، كانت معاشة بعمق وحماس، ومعبرة عن تاريخه الحميمي؛ فقد كانت كلمات «دامية» فعلًا. ويعتقد نيتشه **أن الفيلسوف؛ هو عبارة عن مادة قابلة للانفجار، ومريعة، وخطيرة**، وهي فكرة بعيدة تمامًا عن فكرة كانط حول الفيلسوف، حتى لا نقول عن فكرة «الحيوانات المجترة»، التي يمثلها أساتذة الفلسفة، وغيرهم من الأساتذة بالتعليم العالي، وتقدم كتاباته معلومات قيمة، على الرغم من كون الموضوع الحقيقي، ليس «شوبنهاور المربي»؛ بل «نيتشه المربي»، وينبغي التأمل في الفقرات العنيفة تجاه العلماء، والتي عبر فيها عن ابتعاده التام عن علماء زمنه؛ لأن حكمته تمثلت في المعرفة العميقة بالأشياء، لتحقيق التفرد والتميز.

- إنساني مفرط في إنسانيته:

كان الاحتفاء بمئوية فولتير، مبررًا لصدور هذا العمل سنة 1878م؛ فقد كان هذا المفكر الفرنسي، سيدًا محترمًا من بين المفكرين؛ لذلك يفتخر نيتشه بالاستشهاد به وذكره، والكتاب بمثابة إعلان حرب على مفاهيم مثالية، من قبيل؛ العبقرية، والقداسة، والبطولة، والإيمان، والاعتقاد، والرحمة، والشيء في ذاته؛ ففكرة إنجازه تعود إلى الفترة التي كانت فيها عروض فاغنر الفنية بمدينة بايروت في أوج ازدهارها، وكان من اللازم الابتعاد عن هذه الأجواء، لتحرير هذا الكتاب؛ لأن كل شيء تبدل، بحيث أصبح فاغنر، نفسه، خاضعًا للقيم الألمانية السائدة.

اغتاظ نيتشه من هذا التبدل، وشعر أنه كان مخطئًا، عندما أعلن عن إعجابه بصديقه الفنان، أو عندما مارس مهنة التدريس بجامعة بازل؛ حيث أحس بلا جدوى بقائه أستاذًا لفقه اللغة؛ **فقد قضى عشر سنوات لم يتعلم فيها أي شيء ذي فائدة**؛ لأن كل المعارف المحصلة، لم تكن تساوي شيئًا، لذلك؛ اهتم بالفيزيولوجيا، والطب، والعلوم الطبيعية، والتاريخ عند الضرورة. أما الحكمة من وراء ذلك؛ فهي أن النشاط الذي يزاوله المرء، ضد توجهه الغريزي غير مفيد، وهو ما حدث له مع فن فاغنر الذي كان شيبهًا بالمخدر.

على مستوى آخر؛ اعتبر نيتشه أن المرض خلصه من العادات السابقة، وسمح له بتغييرها جذريًا؛ فقد ساعده على التخلص من تأثير الكتاب؛ إذ مرت سنوات عديدة، دون أن يقرأ شيئًا، وتلك، في نظره، أكبر نعمة حصل عليها، ويمكن الرجوع إلى كتابيه «فجر» و«المسافر وظله»؛ لفهم معنى هذه «العودة إلى الذات»، كأسمى وسيلة للشفاء.

حرر الجزء الأساسي من «إنساني مفرط في إنسانيته» في مدينة سورنت Sorrente، وفيه قطع نيتشه نهائيًا مع كل الهذيانات المقدسة، والنزعات المثالية، والمشاعر الجميلة، والمواقف النسائية الزائفة.

أما خاتمة الكتاب؛ فأنجزت في مدينة بازل، خلال شتاء قارس، وقد أرسل نسختين إلى فاغنر، وتوصل منه في نفس الوقت نسخة من أوبرا بيرسفال، كتب عليها الإهداء الآتي: (إلى ف. نيتشه، من صديقه العزيز ريشارد فاغنر، المستشار الإكليروسي). عندها، أدرك نيتشه أن المواجهة بينهما أصبحت معلنة، وعبّر عن ذلك بقوله: لقد أصبح فاغنر ورعًا!.

الكتاب، إذن، هو: شهادة على الحالة النفسية والفكرية لنيتشه، سنة 1876م، وقد تفادى فيه، هذا الأخير، استخدام ضمير (أنا)، عند حديثه عن شوبنهاور، أو فاغنر، أو بول ري.

- فجر: تأملات في الأحكام الأخلاقية المسبقة.

شكل هذا الكتاب بداية حملة نيتشه على الأخلاق؛ فهو عبارة عن نقد غير عدواني لها؛ لأنه لا ينطوي على أي هجوم عنيف عليها، ولا أي نفي لها، إنه شبيه بحيوان بحري، يعبق بشواطئ جنوة؛ حيث كان نيتشه يعيش منعزلًا في حميمية مع البحر، باحثًا عن السبل التي ستحرر الإنسان من كل القيم السائدة؛ فقد اعتبر أن السؤال الجنيالوجي، حول أصل القيم الأخلاقية، واستشراف قيم مغايرة لها، يهم مستقبل الإنسانية بشكل أساسي، ذلك أن مصير هذه الأخيرة، وضع بين أيادي حقودة ومنافقة، يمثلها القديسون والكهنة، الذين نشروا أخلاقيات الانحطاط المتجسدة في الزهد، والرغبة في الموت، والعداء لكل ما يرتبط بالحياة وبالجسد. لهذا السبب؛ سيكون الفيزيولوجي مناهضًا للكاهن، الذي يستخدم مفاهيم كاذبة، مثل؛ الروح، والخلاص، ...إلخ. لهذا السبب أيضًا؛ اعتبر نيتشه نفسه أول من باشر الصراع ضد أخلاق «احتقار الذات».

- العلم المرح:

كان كتاب «فجر» عميقًا ومنيرًا ومناهضًا لكل ما هو عدمي، وتحديدًا، للأخلاق المسيحية، وسيسير كتاب «العلم المرح» على نفس النهج؛ ففي شهر يناير، وهو تاريخ تأليف هذا العمل، برز العمق الذي أسس عليه نيتشه علمه المرح Gaya Scienza؛ إذ اعتبره حاملًا لآمال عريضة، وممهدًا للدرر الأولى لزرادشت.

هو، إذن، كتاب مليء بالقصائد التي أنجز أغلبها بصقلية، لذلك؛ جسد روح المغامرة، والفكر، والروح، والرقص، كتجليات جنونية بامتياز.

- هكذا تكلم زرادشت: كتاب للجميع وللّا أحد

سأروي لكم الآن، يقول نيتشه، قصة زرادشت؛ فالفكرة الأساسية للعمل، وهي؛ العود الأبدي، انبثقت في شهر غشت 1881م، عند تواجد نيتشه بسفح صخرة قائمة على شكل هرم في غابة مجاورة لبحيرة، وقد دونها على ورقة بالصيغة الآتية: «على ستة آلاف قدم، فوق الإنسان والزمان».

إن كتاب زرادشت، يتطلب آذانًا صاغية؛ لأنه عبارة عن موسيقى، وقد تزامن إنجاز الجزء الأخير مع موت فاغنر بالبندقية، وبصيغة استعارية مثيرة، أكد نيتشه بأن «حمله» دام ثمانية عشر شهرًا، مما جعله، من منظور بوذي، شبيهًا بأنثى الفيل، وأشار، أيضًا، إلى أن فكرة زرادشت، كانت واردة في القسم الرابع من مؤلف العلم المرح؛ حيث كان في حالة نفسية خاصة، دعاها بالانفعال التأكيدي أو المأساوي.

ولم يجد نيتشه بدًّا من الاعتراف بأن ملهمة الكتاب، هي صديقته لو فون سالومي، ورغم الظروف المناخية القاسية (شتاء بارد ورطب)، ومشاكل المرض والأرق؛ فإن الكتاب سيرى النور، متضمنًا كنوزًا سيسعى نيتشه إلى إبرازها، بنوع من الافتخار الممزوج بشعور العظمة، كما سنرى.

فقد أقر بأن أفضل تعبير عن فكرة زرادشت، تم في المقاطع الأخيرة من القسم الخامس ل ـ»لعلم المرح»؛ فالإنسان الجديد في حاجة إلى صحة جيدة، أقوى، وأجرأ، وأكثر مرحًا من كل صحة سابقة؛ «لأن الصحة العظيمة: هي صحة أكثر ابتهاجًا»[15].

سيتساءل نيتشه، بعد ذلك، قائلًا: هل توجد فكرة واضحة في نهاية القرن التاسع عشر، حول ما دعاه كتاب العصور الزاهية بالإلهام؟ ليجيب: بأن لديه تفسيرًا لهذه الحالة؛ فالإلهام هو: ظهور شيء مفاجئ لشيء يرى ويسمع، ولكن لا يمكن التعبير عنه؛ لأنه يقلب كل شيء رأسًا على عقب؛ **فنحن نسمع ولا نبحث عن المصدر، نأخذ ولا نتساءل عن هوية المانح، كما أن الفكر يفرض نفسه علينا كوميض، دون أن نختاره بأنفسنا**. عندها، نحس بالانتشاء، وبالوجد، وتأتينا الأشياء كصور ومجازات، بحيث تسمح لنا، كما يقول زرادشت، باكتشاف كنوز الكلمات، تلك هي تجربة نيتشه المتعلقة بالإلهام، ويجب، في اعتقاده، الرجوع آلاف السنوات إلى الوراء، من أجل التعرف على شخص آخر عاش نفس التجربة.

إن مؤلَّف زرادشت؛ عبارة عن قصيدة فريدة من نوعها، أنجزها نيتشه خلال تنقله بين مدينتي روما (الإيطالية)، ونبس (الفرنسية)، وقد منحه مناخ المناطق الجنوبية، القوة والمرح والاستعداد الجيد للكتابة؛ فالكتاب الثالث، أنجز في ظرف عشرة أيام، والجزء الحاسم المعنون بالألواح القديمة والحديثة، أنجز خلال مرور نيتشه بطريق صعب، بين محطة القطار، وقرية «المغاربة» village maure، المسماة عزة، وعبّر نيتشه عن هذه اللحظات بقوله: «عندما يتدفق الإلهام الخلاق بغزارة في عروقي، تشتغل عضلاتي بشكل جيد».

باستثناء هذه الأيام المرحة؛ فإن السنوات التي استغرقها إتمام الكتاب، كانت قاسية وبائسة؛ **فثمن الخلود باهظ، بحيث يؤدي المرء هذا الثمن في حياته عبر موت مضاعف**، وهناك ما دعاه نيتشه بـ (انتقام الشيء العظيم، الذي ينقلب على صانعه فور إنجازه)؛ إذ يضعف المؤلف، ولا يقوى على مواجهته، وهناك شيء آخر، وهو؛ الصمت المريع الذي يقابل به هذا الإنجاز؛ فلا شيء أكثر إيلامًا من شعور المرء بأنه عرضة للنفور والتهميش، ذلك **أن؛ الطبائع النبيلة نادرة الوجود، وهي لا يمكنها أن تحيا بدون طقوس الاحترام.** أما الأمر الثالث؛ فيتعلق بالحساسية الجلدية تجاه أبسط لسعة، والشعور بالعجز أمام كل ما هو وضيع. في هذه الحالة؛ كان نيتشه يشعر بحرارة التواصل مع قطيع الأبقار، وينفر من الإنسان.

15 انظر تحليل هذه الفكرة، ضمن كتابنا: ريكور، دريدا وآخرون، في الترجمة والفلسفة السياسية والأخلاقية، ترجمة: عزالدين الخطابي، منشورات عالم التربية، الدار البيضاء، 2004م، ص 147 وما يليها.

شكلت هذه الحالات، المتمثلة في العزلة، والنفور من الآخرين، والإحباط المتواصل، عوامل كرست شعور العظمة لدى نيتشه، ودفعته إلى اعتبار منجزاته الفكرية، وخصوصًا، مؤلَّف زرادشت، حالة استثنائية في تاريخ الإنسانية؛ فقد اعتقد بأنه بلغ قممًا عالية، لا يمكن أن يبلغها أحد غيره، سواء تعلق الأمر بغوته، أو شيلر، أو دانتي، أو حتى شعراء الفيدا (وهي: النصوص الدينية، والشعرية الهندوسية القديمة)؛ لأن أعمال هؤلاء جميعهم، لا تضاهي زرادشت؛ فقبل صدور هذا المؤلَّف، لم يكن الناس على دراية بماهية القمة، والعمق، والحقيقة، والحكمة، والنفس، والبيان، وكل ما هو عظيم لدى الإنسان، يعتبر ضئيلًا بالمقارنة مع عظمة الإنسان الأعلى، الذي أصبح زرادشت نيتشه رمزًا له، وهذا الإنسان هو: ديونيزوس نفسه، والشيء المثير هنا، هو: أن أكبر رافض في العالم، هو من يحمل فكرًا تأكيديًا، ويتحمل مصير الإنسانية، ولكنه يتحرك بخفة الراقص، رغم ثقل المسؤولية.

يضيف نيتشه: إن اللغة التي استعملها زرادشت في مناجاته؛ هي لغة المديح والحماسة، معتبرًا أن ابتكاره لهذه اللغة، يندرج في إطار المهمة الديونيزوسية، التي تقتضي امتلاك عنف المطرقة، والشعور بمتعة الهدم، وبقساوة الإبداع.

- ما وراء الخير والشر: مقدمة لفلسفة المستقبل

بعد إنجاز كتابه التأكيدي، الذي يقول: (نعم) للحياة، اعتبر نيتشه أن الوقت حان لقول: (لا) ولقلب القيم، ولإعلان الحرب؛ فمن الآن فصاعدًا، سيصبح العمل هدامًا، لذلك؛ أقرّ أن مؤلَّف «ما وراء الخير والشر»، هو؛ نقد للعلوم، وللفنون، وللسياسة، ولكل ما هو حديث، بشكل عام، وسيتم إخضاع مفاهيم حديثة، مثل؛ الموضوعية، والمعنى التاريخي، والروح العلمية، ....إلخ، لمعاول النقد والهدم؛ فبعد الأسلوب الراقص لزرادشت، كان من اللازم تأليف عمل غاضب «مقطب الجبين»، لا يتضمن أية كلمة طيبة، من أجل فحص صارم وقاس للعصر ولثقافته، وهذا النقد العنيف مقصود؛ فهو عبارة عن استراحة بعد كل الأقوال الطيبة التي تضمنها مؤلف زرادشت.

- جنيالوجيا الأخلاق: عمل سجالي

مرة أخرى، اعتبر نيتشه أن المقالات الثلاث التي يتألف منها الكتاب؛ هي من أكثر النصوص إثارة للقلق إلى اليوم، سواء على مستوى التعبير، أو القصد، أو المفاجأة. وهذا أمر طبيعي؛ **لأن الحقائق تولد وسط السحاب**، ولأن ديونيزوس؛ هو إله الظلمات أيضًا.

تتعلق المقالة الأولى بسيكولوجيا المسيحية؛ حيث جاء فيها: أن أصل هذه الأخيرة نابع من روح الحقد، وليس من الروح بحصر المعنى، كما هو شائع؛ فالمسيحية، في نظره، تمثل رد فعل متمرد على سيادة القيم النبيلة.

أما المقالة الثانية؛ فتتعلق بسيكولوجيا الوعي؛ وقد أكد نيتشه، أن القسوة هي من بين المرتكزات، القديمة والضرورية، التي بُنيت عليها الحضارات.

وتدعو المقالة الثالثة إلى مناهضة النموذج الزهدي، الذي أصبح سائدًا، بوصفه نموذجًا منحطًّا، يعلي من شأن إرادة الموت، ويبخس من قدر إرادة الحياة، وترجع سيادة هذا النموذج، إلى غياب القيم المنافسة له، والقادرة على دحره.

لذلك؛ سيعلن نيتشه: أن هذه الدراسات الحاسمة، صادرة عن سيكولوجي على أهبة الاستعداد لقلب كل القيم.

- أفول الأصنام: كيف نتفلسف بضربات المطرقة

أكد نيتشه بأن هذا الكتاب الصغير الحجم، الذي ألف في بضعة أيام؛ كتاب مصيري، وحامل للسكينة، ويشكل حالة استثنائية بين الكتب؛ إذ لا يوجد ما يضاهيه عمقًا، واستقلاليةً، وثوريةً، وخبثًا، وتتعين قراءته لمعرفة الالتباس القائم لدى الناس منذ فترة طويلة، بخصوص الحقائق؛ لأن ما يدعوه المؤلف بالأصنام، هو ما تعوّد الناس، إلى الآن، على تسميته بـ «الحقيقة»، ويعني؛ أفول الأصنام باللغة الألمانية، وقد وجه نيتشه سهام نقده إلى كل الأوثان التي تم تخليدها، بما في ذلك الأفكار الحديثة، معتبرًا أنه الوحيد من يمتلك الحقائق، وهو القادر على إصدار الأحكام النهائية؛ فبفضل تدخلاته، ظهرت أمام الراغبين في المعرفة، آمال وسبل جديدة؛ فهو المنادي المرح الداعي إلى ثقافة جديدة، مما جعل منه قدرًا محتومًا في هذا العصر.

ذلك ما دونه في مقدمة الكتاب، بتاريخ 3 شتنبر 1888، مبشرًا بعملية تحويل وقلب القيم التي ستضمن له الخلود، وستؤكد للإنسانية بأنه قدرها المحتوم fatum.

- حالة فاغنر: مشكلة موسيقية

انتقد نيتشه موسيقى عصره؛ لأنها فقدت حيويتها ونفسها الديونيزوسي، وهذا ما دفعه إلى نقد فاغنر، الذي سبق أن أحبه وأعجب به، ولكن انتقاده سيوجه، أولًا، للأمة الألمانية، ولثقافتها، ولعقدة التفوق لدى الألمان، الذين اعتبرهم مسؤولين منذ أربعة قرون، عن كل الجرائم التي ارتكبت في حق أوربا، والحضارة عمومًا.

هكذا توجه بنقده العنيف للوثر، الذي أعاد الاعتبار للمسيحية المناهضة لإرادة الحياة، وللنزعة المثالية في شخص كل من لايبنتز وكانط، والتي لم تسمح للثقافة الأوربية باسترجاع عافيتها، وللنزعة القومية والوطنية الضيقة، التي حالت دون تحقيق وحدة أوربا، كما اتهم مجموعة من المفكرين الألمان البارزين، مثل؛ فيخته، وشيلنغ، وشوبنهاور، وهيجل، وحتى شلاير ماخر، بضبابية الأفكار وبزيف المواقف؛ فهؤلاء المفكرين لم يدركوا، في اعتقاده، عمق الأشياء؛ بل ظلوا سطحيين بالمقارنة مع المفكرين الفرنسيين (لاروشفوكو وديكارت)، وعلى سبيل المثال، يعتبر ستاندال أعمق من كانط بكثير!.

باستثناء فاغنر وبعض الفنانين القلائل، لم يكن نيتشه مرتاحًا في علاقته بالألمان، الذين لم تحظ أعماله بالاهتمام من طرفهم، وقد شعر بالإحباط والخيبة جراء هذا التجاهل، خصوصًا، وأن فلسفته كانت تدرس في جهات أخرى غير ألمانيا (في الدانمارك مثلًا)، ولكنه اعتبر ذلك قدرًا محتومًا، وقرر التعامل مع الوضع بسخرية.

لقد كان مؤلف حالة فاغنر بيانًا ضد الثقافة الألمانية، وضد فاغنر طبعًا؛ لأن هذا الأخير ساهم بأعماله الموسيقية في تكريس هذه الثقافة، والمفارقة الكبرى، يقول نيتشه، هي: أن هذا الكتاب سيساهم في تخليد الألمان!.

سيكون السؤال المستفز الأخير، هو: لماذا اعتبِر قدرًا محتومًا؟[16]؛ ففي الصفحات القليلة المتبقية من الكتاب، سيبلغ نقد نيتشه للأخلاق المسيحية ذروته، وستبدو أقواله عدوانية أكثر كما أن تصوره لذاته، سيتسم بالنرجسية المفرطة، وبجنون العظمة «الأقرب إلى الهذيان»، وهو ما أكدته رسالته إلى ستريندبرغ Strindberg، بتاريخ 8 دجنبر 1888م؛ أي بعد إتمام تأليفه لكتابه، وقبل انهياره العقلي بقليل.

سيدافع نيتشه، في هذه الصفحات الأخيرة، عن نزعة مناهضة للأخلاق immoralisme، وتهدم كل ما له علاقة بالطيبة والتسامح؛ فقد اعتبر نفسه عبوة ناسفة، وأكد بأنه لا يريد أتباعًا؛ لأنه ليس مؤسسًا لأية ديانة، ما دام التدين مقترنًا بالعامة، وهو لا يخاطب عامة الناس، ولا يريد أن يكون قديسًا، ويفضّل أن ينظر إليه كمهرج، **والعمل الأساسي والعبقري الذي أنجزه، هو؛ القلب الجذري للقيم.**

أراد قدره أن يكون أول مكتشف للحقيقة ضد الكذب، وهو يرفض أن يكون عدميًا؛ لأنه إنسان يؤمن بالمرح، والأمل، والقدر المحتوم، وتتجلى طبيعته، الديونيزوسية، في هدم وتفجير القيم، لذلك؛ يمكن اعتباره أول مخل بالأخلاق، ولا بد من التأكيد، أن هذا الموقف يندرج في إطار معارضة الإنسان الطيب، والكريم، والمتسامح، وأيضًا، في إطار مناهضة أخلاق سادت إلى حد الآن، وهي أخلاق الانحطاط، المتجسدة في كل

16 F. Nietzsche, Œuvres, op.cit., pp 1191- 1198.

ما هو مسيحي؛ أي في كل ما يناهض الحياة، لذلك؛ كان قول (نعم) للحياة، قائمًا على الرفض والهدم، وفي نظر نيتشه، إذا ما تمعنا في سيكولوجية الإنسان الطيب؛ فإننا سنكتشف بأنها منطوية على الكذب، وعلى رفض مواجهة الواقع كما هو، لذلك؛ فإن غرائز الحياة (أهواء، ورغبات، وإرادة القوة)، أفضل من الطيبة، وضرورتها أكثر بالنسبة إلى الإنسان؛ فكل شيء لدى الطيبين منحرف، وكاذب، ومخادع، ولهذا؛ دعاهم زرادشت بـ (الرجال الأخيرين)؛ الذين يمثلون «بداية النهاية»، ما دام وجودهم يقف حاجزًا أمام الحقيقة والمستقبل، بهذا المقتضى، سيكون الإنسان الأعلى نقيضًا للإنسان الطيب؛ لأن عظمة الإنسان لا تتجلى في طيبته؛ بل في ما يحمله من خصائص مرعبة، ومثيرة للمشكلات المستمدة من الواقع.

سيعترف نيتشه بسعادته، وهو يحمل شارة «المناهض للأخلاق»، باعتباره أول سيكولوجي للنفس الإنسانية، يعارض الفلسفة المثالية، وسيقر بأن كونه «الأول»، يعتبر لعنةً، وقدرًا محتومًا، كما يثير اشمئزاز الآخرين، ومع ذلك؛ فهو يفضل هذه المخاطرة.

صحيح أن هدمه للأخلاق المسيحية، جعله معزولًا عن الإنسانية، لكن هذه الأخلاق، في نظره، هي أسوأ شكل لإرادة الكذب؛ فمن خلالها، تم تعليم احتقار الغرائز الأولى للحياة، وقتل الجسد من أجل إحياء الروح والعقل، واعتبرت العلاقات الجنسية قذرة، ونعت مبدأ الحياة بأسوأ النعوت، وبالمقابل؛ اعتبر نكران الذات والزهد في الحياة أسمى قيمة لدى الإنسان؛ بل هي القيمة في ذاتها! مع العلم أنها تشكل أعلى درجة الانحطاط؛ لأنها تأمرنا بالتخلي عن كل مباهج الحياة، إلى حد الفناء.

وبناء على هذا النقد العنيف؛ سيقدم نيتشه تعريفا للأخلاق، لا يقل استفزازًا وعنفًا، مفاده: أن هذه الأخيرة، خاصية مزاجية idiosyncrasie، ومميزة للمنحطين، الذين توجههم نوايا مبيتة ضد الحياة، بغرض الانتقام منها.

سيتساءل نيتشه: هل فهمني أحد منكم؟ وهو سؤال مشوب بالتحدي والسخرية، موجه إلى الإنسانية، التي ظلت أسيرة الوهم والخداع؛ ففضحه للأخلاق (المسيحية): هو، في أساسه، تعرية لأخلاق الكذب، ولكل المفاهيم التي اكتسبت صبغة القداسة على مدى التاريخ، مثل؛ الروح، والخلود، ..إلخ، وقد وضعت هذه المفاهيم لمواجهة الحياة، وكل ما يرتبط بالجسد (الصحة، الأكل، الرقص، ....إلخ)، فهكذا، عوضت الصحة بخلاص الروح، ونكران الذات، كدلالة على «قدسية» الإنسان.

إن الأمر، بالنسبة إليه، يتعلق بأخلاق الضعفاء (وهم؛ المرضى، والطيبون، والفاشلون)، الذين يجب عليهم الاختفاء والزوال؛ لأن المثال الأعلى لهذه الأخلاق، هو: النموذج المناوئ للإنسان النبيل، والمعتد بنفسه، الذي يقول (نعم) للحياة.

مرة أخيرة سيتساءل: هل فهمني أحد منكم؟ ليعلن، بنوع من التحدي؛ أن الأخلاق الديونيزوسية: هي نقيض الأخلاق التي بشر بها المسيح (المصلوب)[17].

17 اعتبر بيتر بوتز Peter Pütz في تقديمه لهذا العمل (طبعة 19081م): أن نيتشه ناهض، كما في المسيح الدجال، كل أشكال المثالية بوصفها وهمية؛ لأنها تنفي الواقع وتعادي الحياة.

لهذا؛ فإن العبارة الأخيرة التي اختتم بها نيتشه كتاب «هذا هو الإنسان»، والتي تجلى فيها التعارض التام بين ديونيزوس والمصلوب (المسيح)، يمكن أن تفهم بوصفها برنامج عمل، يعلن عن انتصار الحياة على «الانحطاط» بكل أشكاله، وتلك هي الرسالة العميقة التي أراد نيتشه تبليغها. انظر:

F. Nietzshe, Œuvres, op. cit., p 1109.

المصادر والمراجع:

- Friedrich Nietzsche, *Ecce homo ou Comment on devient ce qu'on est*, traduction de Henri Albert, révisée par Jean La Coste, Introduction Peter Pütz, *in Œuvres*, Paris, Robert Laffont, 2005.

- Friedrich Nietzsche, *Ecce homo, suivi de Nietzsche contre Wagne*r, traduits et annotés par Eric Blondel, Paris, Flammarion, 1999.

- Friedrich Nietzsche, *Par delà bien et mal*, texte établi par Colli et Montinari, traduction de Cornélius Heim, Paris, Gallimard, 1971.

- Karl Jaspers, *Nietzsche, Introduction à sa philosophi*e, traduit de l'allemand par Henri Niel, Lettre – Préface de Jean Wahl, Paris, Gallimard, 1978.

- Jacques Derrida, *Eperons, Les styles de Nietzsche*, Paris, Flammarion, 1978.

- Jean Le Franc, *Comprendre Nietzsche*, Paris, Armand Coin, 2003.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017